



المؤدّي الفني في الشعر الإسلامي

بين التنظير والتطبيق (*)

«المؤدّي الفني بين الابتداء والاتباع في الشعر الإسلامي»

إن منهج الفن الإسلامي الذي طرحه الكاتب الإسلامي «محمد قطب» في كتابه الشهير «منهج الفن الإسلامي»، يعدّ التنظير الأعرق والأوفق الذي تنطلق منه محاور نظرية الأدب الإسلامي وأدواتها الفنية؛ فما حظ شعراء الأدب الإسلامي من تمثيل هذا المنهج واستيعاب محاوره؟ هل فقه شعراء هذا الأدب باستثناء القليل منهم غائية هذا المنهج؟ هل أدركوا المنظور الفني الذي ارتقى به الكاتب ارتقاء بواه بحق أن يصنع من الفنان الإسلامي مبدعاً إسلامياً، يتقن الأداة الفنية التي تسعفه من الانزلاق في هوة التقرير والتكرير والمباشرة؟ هل عقل جل شعراء هذا الأدب تجربة منظر هذا المنهج حينما عرض لها مشيراً إلى مصيرها وإلى بواعث تأليفه كتابه؟



د. نبيل قصاب باشي - سورية

لم تقدم حتى اليوم حصيلة تجاربها التي ربت على نصف قرن؛ وليست العلة في المنهجية؛ وإنما العلة في التقصير أو العجز أو التخلف عن استيعابها وتمثلها. وهذه إشارة إلى خواء ثقافة بعض المبدعين الإسلاميين، وتقاطعهم مع أدبيات منهجهم الفني الذي بسطه محمد قطب في كتابه. وهذا بالتالي يجرنا إلى الحديث عن نواتج إشكالية هذا التقاطع والبحث في علته وأزمته.

إن أفضع نواتج هذا التقاطع هو قتل الذائقة الفنية الناجم عن نصوص مكرورة المعنى، باهتة في علاقتها البلاغية، وإنها لأشد وأنكى من قتل الذائقة الناجم عن تذوق نصوص حديثة متطرفة، وكلاهما يسهمان في إغلاق ملكة المبدع والمتلقي وإزهاقها، ويحجبان عنها متعة التفتيش والإدهاش. وهذا ما يمضي بنا بادئ ذي بدء إلى التذكير بفائفة الجمال الفني التي انطلقت منها محاور نظرية الفن الإسلامي.

يرى «محمد قطب» أن الجمال على إطلاقه هو منزع رئيس من منازع النفس الإنسانية، يتأتى في توخي الجمال المنتور في الكون والحياة، والذي يتمشى مع ناموس الوجود، وهذا الجمال مطلق من الضرورة خلقه الله لذوق متعته؛ إن الإنسان في التصور الإسلامي ينشد الجمال لأنه فطرة الله في خلقه، وعليه ينبغي أن يتملى المبدع هذا الجمال، في إطار من التوازن، لا تغلب فيه

يقول محمد قطب: «.. كنت في فترة من الفترات أقول الشعر، وقد ظللت اثنتي عشرة سنة أو تزيد أقول في معنى متكرر، كلما اتجهت إلى الكتابة وجدتني أكتب في نفس المعنى، وإن اختلفت المشاعر المباشرة الدافعة إلى التعبير»^(١) ويفسر الكاتب أزمة ضياعه الفني حتى ينتهي إلى القول: «ثم وجدتني دون قصد مني أنصرف عن قول الشعر»^(٢).

لقد أدرك «محمد قطب» غائية الفن الإسلامي الأصيل مُلمحاً إلى أن الجمال الفني لا يكون في تداول المعنى وتكريره؛ وهل تكرير المعنى سوى تعطيل للملكة الإبداع، وتجهيل وقتل لثقافة المبدع والمتلقي على حد سواء؟ إن الشاعر المقلد ناقل أمين فقط لما طرحه السلف وما يطرحه الخلف، وليس في ذلك فضل؟ وليس هي رسالة المبدع التي يتوخاها منهج الفن الإسلامي.

إن منهج الفن الإسلامي يسعى إلى توخي الجمال وتصيده، واقتناص فرائده موازناً بين جمال الشكل وجمال المضمون، في منظومة علائق بلاغية

صادمة للحس والخيال على حد سواء، ولا يتأتى ذلك من اجترار المعاني وتكريرها؛ وما لم يتسلح المبدع بأدوات فنية جديدة؛ فإنه سيتخلف عن معطيات الثقافة الحضارية، وسيجد نفسه تلويح في مكانها، وسيظل عاجزاً عن التصدي لتقاناتها الحديثة.

إن نواتج منهجية محمد قطب الفنية في محصول طائفة من النتاج الشعري الإسلامي مازالت خاوية،



محمد قطب



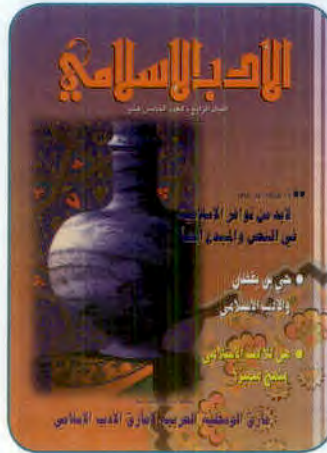


إننا سنُمنى بخيبة أمل إذا تبين لنا أن جل شعراء الأدب الإسلامي، يعتقدون أن الفن الإسلامي هو وسيلة الدعوة إلى الإسلام، في إطار من الحكيم والمواظ والإرشادات أي: في إطار من المعاني الجاهزة والأفكار المنمنقة. إن في هذا الاعتقاد فهماً ضيقاً للدين والفن على حد سواء. يقول محمد قطب: «إن الدين يلتقي في حقيقة النفس بالفن، فكلاهما انطلاق من عالم الضرورة، وكلاهما شوق مجتئ لعالم الكمال، وكلاهما ثورة على آلية الحياة»^(٤). فالفن عند محمد قطب انطلاق من عالم الضرورة... شوق مجتئ..

ثورة على آلية الحياة.. ويرى أيضاً أن الإنسان إذا تلبت نفسه، يمر مروراً آلياً على هذا الكون، فيتجمد شوقه العلوي، ويضيق على نفسه المنافذ، فلا يرى نفسه منطلقة مجتئة، مرفرفة في عالم الجمال، إنه «قد أغلق نفسه دون عالم الفن والجمال وبالتالي يكون قد أغلق نفسه دون عالم العقيدة»^(٥).

فمحمد قطب يربط بين الفن والعقيدة؛ لأنهما يلتقيان في أعماق النفس كما يلتقيان في عالم الوجود،

ثم تجده ينتهي إلى القول الصريح: «الفن الإسلامي ليس بالضرورة هو الفن الذي يتحدث عن الإسلام، وهو على وجه اليقين ليس الوعظ المباشر، والحث على اتباع الفضائل، وليس هو كذلك حقائق العقيدة المجردة، مبلورة في صورة فلسفية، فليس هذا أوداك فناً على الإطلاق»^(٦) فالفن الإسلامي في منهج محمد قطب «هو الذي يرسم صورة الوجود من زاوية التصور الإسلامي لهذا الوجود.. هو التعبير الجميل عن الكون والحياة والإنسان»^(٧).



شهوة الجسد على ملكة العقل، ولا ملكة العقل على واقع الأرض، ولا عالم الروح على عالم الحس؛ وهذا التوازن ينبثق عنه فن إسلامي يوازن بين «عالم الضرورات القاهرة وعالم الأشواق الطائرة»^(٨) وبغير هذا التوازن يتأطر الجسد في جمود المادة، ويتأطر الروح في رهبانيتها، ويتأطر العقل في جفاف التفكير الذهني؛ وبذلك يشتط المبدع عن غائية الجمال في الفن، فينعكس ذلك سلباً على عواطف النفس الإنسانية، وتقطع صلتها بجاذبية الفن ومتعته.

إن الفن فكرة صامته تصبح بإيحاءاتها لا بمعانيها.. تشف بدلالاتها وترف بإشاراتها فحسب؛ لا فكرة مثثرة برمجها العقل ونسقها المنطق، تقدم لنا المعاني جاهزة على طبق من ذهب.

إن الفن ومضة خاطفة تنبثق من باطن النفس، فتعوم على سطحها عوماً نحاول أن نتغور أعماقه، لعلنا نتلمس من بين ومضاته برقاً يندر بالغيث، لكن لا نستطيع أن نتنبأ بالأرض التي سوف تحضن هذا الغيث، ولا بالأزهار والأشجار التي

ستنتشر في مختلف البقاع والأرباع، ولا بالألوان والظلال التي سيختارها منزل هذا الغيث ومبدع جماله. وقد يكون برق هذه الومضة برقاً خلباً يمضي بنا إلى سراب، ويضرب بنا في غياهب من ضباب. وبين البرقين مفترق طريق بين جمود التقليد وجديد التحديث، وبين هذين البرقين أيضاً مفترق طريق آخر بين الحداثة الإيجابية والحداثة السلبية. وفي كلتا الحالتين ينبغي أن نستطلع الملامح الجمالية في المؤدى الفني للأدب الإسلامي، والمدى الذي حظي به سلباً أو إيجاباً.

والموجودات التي ينبغي أن يراها بعدسة بصيرته وحسه، لا بعدسة عينه وبصره. ويكفي أن تنفذ هذه العدسة إلى بواطن الأشياء نفوذاً خاطفاً، يترك في نفس المتلقي أثراً عميق المدى والفضاء، يجعله أكثر صلة بالكون والحياة.

إن تقوقع كثير من شعراء الأدب الإسلامي في بوتقة الوعظ المباشر، يحجب عن النفس موحياتها، فيرتكس حُداؤها الصاعد عن نبش ما في طاقة الإنسان من مكونات. يقول محمد قطب: «الإسلام هداء إلى الصعود. والفن الإسلامي أحد الموحيات القوية للنهوض والحركة والصعود. ولكن بالإيحاء بما في طاقة الإنسان من مكونات...»^(١١).

«فلسفة الجمال الفني في نظرية الأدب الإسلامي»

كيف تناول الإسلام فلسفة الجمال بوجه عام؟ وما مدى تمثل الشاعر الإسلامي محاور هذه الفلسفة وملاحمها؟ وهل للفنان المسلم أن يختار الأداء الفني الذي يشاء؟ وما حدود معايير أدواته الجمالية؟ ينطلق الإسلام في فلسفة الجمال بوجه عام من دأب القرآن الكريم على التنبيه الدائم إلى مواطنه في كل مشهد من مشاهد الكون والطبيعة، والحض على تذوقه وتوحيه، فالله جميل يحب الجمال.

ويذكر «محمد قطب» مُنظراً منهجية الفن الإسلامي أن الباعث إلى تأليف كتابه هو ما كان يتحراه في كتاب الله عز وجل باحثاً عن إشارة لتذوق معاني الجمال ومجالاته المتعددة المتنوعة، حتى وجده في التوجيه الفني والجمالي الذي لمسه في تنبيه الإنسان إلى ما في هذا الكون من جمال، وإلى ما في كتاب الله من صياغة جميلة معجزة في التعبير عن هذا الجمال بحيث يتسق جمالها مع جمال هذا الكون.

إن الفن الإسلامي يتناول ما يجري في هذا الوجود تناول استشعار واستشفاف بحس المؤمن الجميل المنطلق في عالم الجمال من شتى نوافذه المطة على فضاءات الحق والجمال. إن «محمد قطب» لا يقبل من المبدع أن يتناول شخصية الرسول وهو الأعلى مقاماً، أو سيرته أو أية غزوة من غزواته أو أية حقيقة من حقائق العقيدة في معزل عن التعبير الجميل الذي ينطلق من حقائق الوجود من خلال التصور الإسلامي لهذا الوجود، «كأنَّ يَصوِّرُ المبدع الحق حقيقة النبوة بأنها إشراف كونية، أو حقيقة واصلية بين السماء والأرض، تسير بقدميها على الأرض، وترفرف بروحها في السماء.. فحين ذاك يكون فنه إسلامياً صادق التصوير لحقائق الإسلام»^(٨). أما أن يُؤطر دلالة النبوة في أفكار وسير نبوية؛ فذلك لا يكون فناً إسلامياً على حد تعبيره. فالأفكار المجردة والقوالب الذهنية في منظومة العلائق البلاغية القديمة، تخرج من دائرة الفن الإسلامي الذي ينشد الجمال الفني. والجمال الفني لا يكون في إطار الإبداع المعجب إذا أسرف الفنان واشتط في التقريرية المباشرة والنمطية المكرورة، إنه يفقد بهتته ودهشته، فيعطل في نفس المتلقي ردة فعله الجاذبة الماتعة، فينحرف بذلك مبتعداً عن غائية الفن الإسلامي.

إن «الفنان هو العدسة الكاشفة التي تكشف عن حقائق الأشياء الباطنة التي لا تراها العين»^(٩) ولعل «ومضة واحدة في لحظة خاطفة.. تعمل في النفس ما لا تفعله أجيال من التجارب والأحاسيس والثقافات والاطلاعات التي توسع مدارك النفس، وتعمق صلاتها بالكون والحياة»^(١٠).

إن كثيراً من شعراء الأدب الإسلامي لم يفقهوا آلية هذه العدسة التي تفيض أطيافها بشتى ألوان الجمال، وظلاله الممتدة في أعماق الأشياء



فحسب «وإنما لتصوير حالة الظلام النفسي الذي يورثه الكفر للنفوس، فإنه أمدنا بلوحة طبيعية رائعة يتمناها الحس والخيال، ويعمل فيها الفن بحرية وانطلاق»^(١٥).

وبعد، فكيف يتناول الفنان المسلم ملامح هذا الجمال؟ وهل هو حر في اختيار أدواته الفنية؟ وهل استطاع أن يستوعب هذه الأدوات ويتمثلها خير تمثيل؟

إن غائية الفن الإسلامي كما ألحنا مراراً هو «أن يعرض الحياة كلها من خلال المعايير الجمالية.. وألوان الجمال لا حدود لها، فهي لا تقف عند حد الحس ولا تتحصر في قالب محدود»^(١٦)، وإذا كانت أولويات الفن الإسلامي إبراز دور العقيدة في حياة الإنسان كما يرى «محمد قطب» فإنه ينبغي على الفنان أن يحتاط الاحتياط الكامل من أن يصبح خطابه خطاباً وعظيماً أو قوالب فلسفية جامدة وتحرف بفنه عن طريقته وأهدافه وميدانه الخاص.^(١٧) ويرى أنه «ليس من الضرورة أن تُذكر العقيدة

ويتحدث «محمد قطب» عن فرحته العظيمة يوم أن هزت نفسه هذه الآية: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ (النحل) إن لفظة الجمال فتحت للكاتب آفاقاً مشرقة ومنافذ عدة^(١٢)

من التأمل والتدبر. ورأى أن القرآن الكريم استعرض بعض مشاهد الطبيعة فأفاض في تعدد أنواعها وألوانها «واستخدم لبيان التنوع أداة فنية معينة هي تنوع السياق، ليساعد على استكناه التنوع في الطبيعة»^(١٣). ويعلق على قوله تعالى: ﴿... انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه...﴾ (الأنعام)، لم يقل هنا: كلوا من ثمره؛ لأن السياق

سياق استشفاف لمواطن الجمال وألوانه، قال: «انظروا بعيون مفتوحة، وحس مستشرف لتلمي الجمال.. لأن المعرض معرض الجمال المبثوث في الطبيعة، والقدرة القادرة التي تبديع الجمال»^(١٤).

وانظر أيضاً إلى قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسُ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾ (الفرقان) إن القرآن الكريم هنا لا



يلفت النظر إلى الطبيعة بقدر ما يوجه النظر إلى الجمال: الجمال الطبيعي الذي يتعانق مع جمال التعبير، وأثر هذا الجمال في النفس والحس.

وانظر أيضاً إلى قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمَانُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ (النور) إن القرآن الكريم يرسم لوحة تشكيلية رائعة من لوحات الظلام في مشهد من مشاهد الطبيعة ليس لعرض المشهد

صراحة أو أن يُذكر الدين؛ وإنما تُرسم الحياة من خلال العقيدة وأثرها في النفوس»^(١٨)، إذن هل من الضرورة أن يتقيد الفن الإسلامي بالموضوعات القرآنية وأغراضها التعبيرية وطرائقها الفنية؟

إن الفن الإسلامي كما يرى «محمد قطب» ليس مقيداً بالموضوعات القرآنية ولا بأغراض التعبير القرآنية ولا بطرائق التعبير^(١٩) إن طرائق التعبير ومضامين موضوعاتها متاحة أمام المبدع الإسلامي «فهو حر في اختيار موضوعه، وفي طريقة أدائه، وفي

تقول القاعدة الفقهية^(٢٣). وهو التوجه نفسه الذي طرحه محمد قطب في «منهجه» قبل نصف قرن مضى حين لم ير حرجاً من الاستمتاع بالفن العالمي الذي قد تغاير مسيرته الفنية منهج الفن الإسلامي لكنها قد تتوافق معه أيضاً، وقد يكون فيها لون من ألوان الجمال^(٢٤). ونحن نرى أن نقتبس من معايير الفنون العالمية الحديثة كل ما يتوافق مع طبيعة الفن الإسلامي ومذاهبه الأدبية.

فالحداثة الإيجابية التي ننشدها، ونرى فيها توافقاً مع معاييرنا الجمالية أمر لا ينبغي أن ندير ظهورنا له، ونخسر بتجاهلنا له نوافذ عدة نطل منه على أدوات الجمال الفني الجديدة.

إنه لا ضير أن نقتبس من معايير الحداثة ما يمنح نظرية أدبنا الإسلامي حركة ثقافية متنوعة، يندفع فيها التوهج بأطيافه الجمالية المتنوعة، ويقتلعنا من حال الركون والسكون إلى معايير مفعمة بالحركة، ممتدة في اتساعاتها ومداراتها.

إن تجديد الحياة الفنية، وضخ ماء جديد في أوصالها، يجعلها أكثر نضارة، وأمتع حلاوة، بما سيتمخض عن جديد مائها من جديد النبات والثمر، ولا ضير أن نضخ هذه الحياة بجديد الحداثة الغربية؛ فـ «محمد قطب» لا يرى حرجاً من أن يلتقي جميل هذا الجديد مع منهج الفن الإسلامي، ولا يرى أن تنبذ هذا النتاج العالمي الضخم، أو أن نمتنع عن قراءته ومدارسته، والاستمتاع بما فيه من جمال جزئي^(٢٥).

إذن لا ضير أن نستعير أدوات هذا الجمال الجزئي في أدبيات فنوننا الإسلامية؛ وإذا كان «محمد قطب» يلمح بذلك إلى جمال المضامين الذي ينبثق من تصور معين للكون والحياة والإنسان، فإن جمال الأداء الفني أولى وأشد ضرورة؛ لأن المبدع

اختيار النسب والأبعاد والأضواء والظلال في كل لوحة مفردة يرسمها مادام لا يخرج عن النسب العامة التي ترسمها مفاهيم القرآن الكونية الكبيرة^(٢٦).

فشرط محمد قطب إذن هو أن تتطابق مقاييس الجمال الفني مع مقاييس الجمال الكوني الذي يستند إلى التناسق الملحوظ لا إلى العبثية والفوضى «فالنجم طليق في مساره الصحيح، خفيف الحركة، رشيق الانطلاق، لكنه لا يخرج عن مساره ويصطدم بغيره من الأفلاك»^(٢٧)؛ وحال الفنان المبدع الملتزم حال النجم سواء بسواء، ينبغي أن ينطلق في عوالمه المرفرفة ناشداً الجمال، مختاراً ما يشاء من طرق أدائه، وملحات تعابير، ورشاقة تصاويره؛ لكنه لا يخرج به ذلك عن التناسق الجميل إلى الفوضى المنقّرة، والعبث الاعتباري.

رؤية نظرية الأدب الإسلامي في التلاقح الثقافي الفني؛

توافق جل نقاد الأدب الإسلامي على التواصل مع فنون الأدب الحديثة والاقتباس من معاييرها الجمالية؛ وقد نصّت مبادئ رابطة الأدب الإسلامي العالمية على أن «الأدب الإسلامي يفتح صدره للفنون الأدبية الحديثة، ويحرص على أن يقدمها للناس وقد برئت من كل ما يخالف دين الله عز وجل، وغنيت بما في الإسلام من قيم سامية وتوجيهات سديدة»^(٢٨).

ولا يرفض الدكتور عماد الدين خليل أيضاً أن يتعانق منهج الأدب الإسلامي مع آداب الأمم والجماعات والشعوب فيأخذ منها الصيغ التي تضيء هذا المنهج، ولا يرى أن يغفل الدارس «عاملاً» منها مادام يخدم هذا التوجه الشمولي ولا يرتطم في أساسه بيدايات العقيدة وتوجهاتها، فالأصل في الأشياء الإباحة ما لم يرد نص بالتقييد كما



إنك لتشعر بحميمية واشجة، وأنت غارق في قزحية هذه الألوان وأطيافها المختلفة في مخلوق طبيعي واحد في هذا الكون؛ لهذا لا غرابة أن نستشعر هذه الحميمية العميقة في قوله النبي صلى الله عليه وسلم في جبل أحد: «هذا جبل يحبنا ونحبه». إنه استشعار بحقيقة الجمال، وانسجام ضارب في عالم الأشواق مع الأشياء والأحياء؛ إنه تفسير فطري لطبيعة النفس التي فطرت على حب الجمال، ولطبيعة أجسامنا الماكثة في الأرض المرفرفة بأرواحها إلى السماء.

«المؤدى الفني بين تنظير المنهج ونواتج التطبيق»

هل امتثل شعراء الأدب الإسلامي لثقافة هذا المنهج الذي طرحه محمد قطب منذ نصف قرن؟ وهل استطاع مؤداه الفني إثراء الأدب الإسلامي وبلورة نظريته النقدية؟ هذا هو السؤال الذي تنتهي إجابته عند المفارقة الواضحة بين تحديث المؤدى الفني في الأدب الإسلامي وبين التنظير والتطبيق. لقد استعرضنا فيما سلف المحاور الأساسية لنظرية هذا

المنهج من حيث التنظير في الكشف عن معاييره وأدواته الفنية، وبقي أن ننظر في تمثيل هذا التنظير بعد مضي نصف قرن تقريباً على طرحه.

إن الإجابة عن هذا السؤال في هذه العجالة لن أوفيقها حقها تمام الوفاء وهي أقرب ماتكون ورقة بحث ليس غير. لكني سأجتهد اجتهاد المقل لا الممل. أزعم أن فريقاً كبيراً من شعراء الأدب الإسلامي لم يتمثلوا هذا المنهج خير التمثيل والتطبيق، ولم يستطيعوا هضمه واستيعابه وامتلاك أدواته الفنية

في رؤيته حر في اختياره الأداء الذي يشاء، في إطار الحفاظ على المفاهيم العامة للجمال في التصور الإسلامي كما ألمحنا إلى ذلك من قبل.

إن الركون إلى مساحة من الجمال الفني - أعني التراوح في ميادين العلائق البلاغية القديمة - يقتل في النفس الحركة الجاذبة لكل مدهش وعجيب؛ وحين يصبح الجمال مأثوفاً في الحس والخيال، يعطل مدارك النفوذ إلى المشفوف من مكوناته المخبوءة، وجولاته الماتعة التي تتقضى أسرار إحياءاته ومغاورها العميقة.

إن الطبيعة تعلمنا أسرار الجمال الذي فطرت

عليه، فتقدمه لنا في أزياء مختلفة من الزمان والمكان... فهذا مشهد واحد تفتن الطبيعة في عرضه:

إنه الشمس مثلاً التي تفتن في زيتها، فتبدو جميلة حين تسليخ بعد الفجر من الليل، فتتشق رويداً رويداً، تكشف عن برقعها الجميل على استحياء؛ ثم تتزيا زياً آخر عندما تعرض جمالها في وضوح الضحى الساطع؛ ثم تذهب بك بعد طول سطوع في النهار إلى شفافية

الغروب الذي يتأنق في وشاح ألوانه الشفقية. وكم تبدو الشمس جميلة حين تتمنع عن الظهور قليلاً خلف غيومات متناثرة في الفضاء هنا وهناك، كأنها خريدة حسناء تشتط في غنجها متوخية إثارة غيرتك، ناهيك عن جمال غروبها في مشهد بحري، أو جمال اختفائها وراء واحة من الأشجار، أو تواربها الأخير وراء قمة شامخة من شواهد الجبال، أو بين مهاوي شعابه، أو وراء الامتداد الواسع من كثبان الرمال الضاربة في مجاهل الصعراء.



وإدراك أبعادها الجمالية: بل تراهم شذر مذر
في مؤداهم الفني. ولا ضير أن يكون شعراء اتجاه
عريض من اتجاهات الأدب مختلفي المنازع والأهواء
في اختيار المؤدى الفني لطرائق أساليبهم الأدبية؛
لكن العجز والقصور عن تحقيق أدنى معايير الجمال
في هذا المؤدى أمر يحتاج إلى بيان واستقصاء.

لقد تأملت أعداداً كثيرة من «مجلة الأدب
الإسلامي» التي تصدرها رابطة الأدب الإسلامي
العالمية، وعرجت على نماذج منها، ابتداء من العدد
الخامس عشر، وانتهاء بالعدد الثاني والخمسين،
أتدبر قراءة نصوصها الشعرية قراءة أناة وتأمل،
متحريراً النظر في مؤداها الفني، ومفتشاً عن أسرار
جمالها، وطرافة صوره البكر، والافتتان في تناول
مضامينها. وقبل أن أقدم النواتج التي انتهت إليها
يحسن بي أن أقدم نماذج من نصوصها الشعرية
وأقتطف منها ما تتيحه لي هذه العجالة في هذه
المجلة، عازفاً عن ذكر أسماء أصحابها:

(١) ١٥٤ ص ٨٧ (الغرية):

غربة الإسلام عادت من جديد
وقبضنا الجمر في عزم عنيد
نحن نمضي والريزا حولنا
تمطر الركب ببرق ورعود
لا نبالي سخر القوم بنا
أم تلقوننا بباقات الورود
نحن أغراب على درب الهدى
نقتدي بالنجم في خطو وئيد

(٢) ١٩٤ ص ٤٣ (تأمل):

لي في حياتك أمتي آيات
ولنا إذا عبس الزمان عظات
في عصر مبعوث الإله إلى الورى
سمت الحياة وجادت الثمرات

والراشدون الأولون أئمة
صيد على نهج الرسول دعاة
والتابعون لهم بخير بعدما
حل الفساد وجاءت الشبهات
(٢) ٢٠٤ ص ٤٥ (ابتهالات):

إلهي فك عن قلبي قتاما
وهيئ في رحابك لي مقاما
فإن يشرق بهاؤك في ضميري
وأوليت المحبة والسلاما
أكن ياخالقي في الخلق عبداً
أناب إليك إذ صلى وصاما
(٤) ٢٥٤ ص ٩٧ (عندما تبوح الجراح):

قلب جريح في الدماء سيغرق
ومشاعر تسبى وحيناً تعتق
إن الصديق إذا تقادم عهده
خان الوداد وقد يخون الأوثق
لا تنكروا.. هذي الجراح تقول ما
فعل الصديق ودمعها يتدفق
أخفيت دمعاً قد بدا ومشاعراً
فضحتك أبيات تنوح وتشرق
قلت: المصائب قد تنوء بحملها
فتساعد الأبيات قلباً يخفق
(٥) ٢٨٤ ص ٢٨ (عرس شهيد):

أنت «رامي» ودرة ومحمد
وأزيز الرصاص والكون يشهد
مُتُّ بل عشت فالشهادة جسر
لحياة أعلى وأعلى وأرغد
والذي يدرك الشهادة ضيف
عند باريه في الجنان مخلص
يصطفيه الرحمن فهو المجلي
في الحياتين والكريم المسود



ياقباب الأقصى التي نفتديها

إننا عائدون والعود أحمد

في زحوف يقودهن همام

هو رام ودره ومحمد

(٦٤١، ص ٢٦) (وكيف يفرد السرب)؛

من يدفع السرب كي يشدو على الوتر

بين الخمائل والأضواء والقمر

ياراية المجد من يعليك مكرمة

يرنو بلهفته للمجد والظفر

قد أطلق القوس والأرماع غاضبة

كي يشعل الأرض من جمر ومن شرر

يعانق الفجر أنوارا معطرة

فيها من الذكر والآيات والصور

يسابق الطير في الأجواء سابعة

حيناً وآخر بين الدوح والشجر

يمضي وقد ملأ الأرجاء قاطبة

من شعره طيب الأغراس والثمر

كي ترتقي أمة الإسلام من وهن

تعلو ذرا المجد بين الخلق والبشر

(٧٤٨، ص ٤٩) (العيد في أريحا)؛

العيد أقبل لا بشر ولا طرب

ولا سرور ولا ضحك ولا جذل

المسلمون بأرض الله قاطبة

في غاية السعد لا شكوى ولا ملل

لكننا في أريحا في أسى وضنى

وضيق حال ويؤس ما له مثل

إننا نعيش حياة لا سرور بها

في كل شبر لهيب الموت يشتعل

العيد جاء وولى دونما فرح

والحال فينا له قد يسقط الجبل

متى تعود فلسطين بكاملها

لأهلها كي ينام القلب والمقل

(٨٤٩، ص ٩) (يا حامل القرآن)؛

ماذا أخط إذا أتى القرآن

نورا به كل الدنيا تزدان

يا حامل القرآن علمنا الهدى

كي نستبين إذا أتى الطوفان

علم لنا الأجيال من قرآننا

فالنور ذكر في الدجى رنان

علمهم الترتيل روحانية

بين الليالي إن أتى رمضان

حتى يفوزوا بالجنان وبالرضا

ونصيبهم من قبلها الغفران

هذا هو القرآن في أنواره

عبق تذوب بحبه الأجفان

دوما يعطرنا بأنسام الصفا

فإذا الوجود تلفه الأفنان

وإذا الوجود مسبح ترنيمه

سبحانك اللهم يا رحمان

(٩٥٢، ص ١٩) (غدا اليهود)؛

جن اليهود فأشعلوها نارا

عادت عليهم خيبة وتبارا

شعب الجبابرة الذين عرفتهم

خاضوا الحروب ودوخوا الفجارا

ما آمنوا بالله والإسلام

إلا زادهم إيمانهم إصرارا

أبطال جالت وحطين الألى

طلعوا على هام الزمان فخارا

(١٠٥٢، ص ٤٩) (الحب)؛

الأرض تسجد والجبين

لله في حب ودين

فالحب دنيا أشرق

أفاقها بالساجدين

الحب نور مؤمن

يأوي لصدر المؤمنين

الحب نجوى المتقين

الحب شكوى الصابرين

لقد آثرت في قراءة هذه النصوص أن أضنها في محورين: ذاتي وموضوعي؛ تنوعت مضامينهما بين

دنية ووطنية واجتماعية ووجدانية لنلاحظ كيف اختار شعراؤها نمطاً واحداً من الأسلوب التقليدي تحسبها كأنها لمبدع واحد يكرر نفسه ويدور في فلك صياغة واحدة في شتى المضامين.

لقد كانت هذه النصوص نموذجاً واضحاً للمباشرة والتقريرية في التعبير والتصوير. ويحسن بنا أن ننبه هاهنا أنه ليس في التقريرية والمباشرة عيب فني

إذا كان لدى المبدع طاقة إبداعية يؤدي فيها المعنى أداء لا يخلو من طرافة وإدهاش.

وشعرنا العربي قديمه وحديثه متخم بفرائد المعنى التي يفني جمال تفرد معناها عن جمال ديباجتها الفنية وشفيف إشارات الدلالة وإيماءاتها الإيحائية. ولكن أن تخلو هذه النصوص مما يعجب ويفرب، وتنتكس في رتابتها المملة، فهذا ما نرغب أن نلفت إليه نظر المبدع كي يقلع عما هو فيه، ويخرج من فلك الآخرين، ليكون له فلك خاص، تسبح فيه نجومه ومداراته فحسب.

لقد تواكبت تراكيب هذه النصوص تواكباً نمطياً في رتابتها التقليدية، وجمود مائها،

واصطفت ألفاظها باهتة عارية تماماً من أية ومضة من ومضات الإحياء المشف، والإشارات المرفرفة بأطياف دلالاتها، والمتوهجة بلألأء حروفها. إنها أشعار في غاية التسطح والرتابة لا ماء فيها ولا حياة، ناهيك عن خلوها من الديباجة المشرقة، والسبك الأصيل، والتركيب الرصين، إنها تقتقر لأدنى المعايير التقليدية. وارتكس الخيال فيها ارتكاساً كسيحاً تقوقع في صور مألوفة باهتة؛ هذا فضلاً عن العيوب الأسلوبية التي أتخمت بها بعض النصوص من أجل الوصول إلى القافية نحو: (الأضواء والقمر / المجد والظفر / الجمر والشرر / الذكر والآيات والصور / الدوح والشجر / الخلق والبشر) و(لا طرب ولا سرور ولا ضحك ولا جزل / لا شكوى ولا ملل).



وتشتط هذه النصوص في اجترار الرموز الباهتة والتشابه والاستعارات المكرورة التي لا تزال في مخيلة آلاف الشعراء منذ خمسة عشر قرناً نحو: (البرق، والرعود، والأوراد، والنجم، وعبوس الزمان، والققام، والقلب الجريح، والغرق في الدماء، والنور المعطر، ولهيب الموت، ونور القرآن، والقرآن يأتي، ورمضان يأتي، والقرآن يعطرنا بالأنسام، واشتعال النار، والأرض تسجد، والحب نور، والأبيات (الشعرية) تنوح وتحرق وتساعد القلب المخنوق).

إنها نصوص صبت في موسيقا بحورها الشعرية ليس غير، لم تذهب بنا في الخيال البعيد الذي يقتنص الصور البكر، فتصدمنا تحليقاته المجنحة في إطار من العلائق البلاغية الجديدة. ربما تغني طرافة



أو المعايير الفنية، بحيث تغني نظرية النقد في مصطلح الأدب الإسلامي وتثري محاورها الفنية. إن مثل هذه النماذج يفضي بنظريتنا النقدية إلى العجز والجمود والتخلف عن مسيرة النقد الفني بعامه. ليس للمعاني ولا للألفاظ هنا أي فضل يرتجى في عالم الأدب، وليس تعريضنا لها من قبيل التحليل والتفسير والنظر في مسألة تفضيل اللفظ على المعنى، أو تفضيل المعنى على اللفظ؛ فموضع النظر في هذه المسألة أتخم بحثاً وتظييراً في موارثنا البلاغي على امتداد عدة قرون ابتداء من الجاحظ ومروراً بالخطابي والرماني والجرجاني، وانتهاء بالرافعي.. تلك مسألة مضت وانتهت، فنحن اليوم أمام مسائل نقدية ونظريات فنية وفلسفات جمالية تفرعت وتشعبت وغارت في مذاهبها الفنية غوراً بعيداً، ينبغي أن نهتدي إليها ونحذق أدواتها، ونحسن اقتناص ما فيها من جمال، واقتباس ما يتوافق مع أدبيات نظرية نقدنا العربية والإسلامية ■

المعنى كما أشرنا سابقاً عن جمال التصوير ورشاقة التعبير، لكن أي فضل في معاني هذه النصوص، وأية صياغة حديثة تحمل بصمتها المتميزة؟ إنها معان شتى تعاورها الشعر العربي منذ أكثر من عشرة قرون، فكيف تمثل مثل هذه النصوص حادثة في التعبير والتصوير تفضي إلى الجمال المتوخى في مؤداها الفني؟ أليس في مثل هذه النماذج ارتكاس لنظرية منهج الفن الإسلامي الذي دأب «محمد قطب» على فلسفة أدواتها الفنية؟

إن مثل هذه النماذج تقتل فينا الذائقة الفنية، وتغلق علينا منافذ مخزوننا الثقافي الفني فلا نستطيع أن نصول ونجول في تفسير أسرارها الجمالية، فنحن أمام نصوص خالية من أدوات الجمال الفني، تحجبنا تماماً عن الغوص في مجالها، وتؤطر فلسفة تذوقنا ومخزوننا النقدي في إطار مغلق، لا نستطيع أن ننفذ منها إلى اكتشاف أية منظومة بلاغية فيها، تكتظ بالمصطلحات الجمالية

الهوامش:

- (*) ملحوظة: اعتمدت هذه الدراسة في جل إحالاتها على كتاب «منهج الفن الإسلامي» للكاتب «محمد قطب» لحسابه المرجع الأشهر والأسبق لنظرية الأدب الإسلامي.
- (١) قطب، محمد: منهج الفن الإسلامي، ص ٨، ط ٤، دار الشروق، القاهرة، ١٤٠٠ هـ / ١٩٨٠ م.
- (٢) المصدر السابق: المقدمة، ص ٨.
- (٣) المصدر السابق، ص ٤٥، ٤٢.
- (٤) المصدر السابق، المقدمة، ص ٥.
- (٥) المصدر السابق، المقدمة، ص ٥.
- (٦) المصدر السابق، المقدمة، ص ٦.
- (٧) المصدر السابق، المقدمة، ص ٦.
- (٨) المصدر السابق، ص ١٢٠.
- (٩) المصدر السابق، ص ١٢٤.
- (١٠) المصدر السابق، ص ٧٨.
- (١١) المصدر السابق، ص ١٣٠.
- (١٢) المصدر السابق، ص ١٣٩، بتصرف.
- (١٣) المصدر السابق، ص ١٤٧.
- (١٤) المصدر السابق، ص ١٤٧.
- (١٥) المصدر السابق، ص ١٥٣.
- (١٦) المصدر السابق، ص ١٣٥.
- (١٧) المصدر السابق، ص ١٣٤.
- (١٨) المصدر السابق، ص ١٣٤.
- (١٩) المصدر السابق، ص ١٤١.
- (٢٠) المصدر السابق، ص ١٤٣، بتصرف يسير.
- (٢١) المصدر السابق، ص ١٤١.
- (٢٢) تعريف رابطة الأدب الإسلامي العالمية، ص ٥، ط ٤، ١٤٢٥ هـ / ٢٠٠٤ م.
- (٢٣) مجلة الأدب الإسلامي العدد ١٥ لعام ١٤١٨ هـ - ١٩٩٧ م.
- (٢٤) قطب، محمد: منهج الفن الإسلامي ص ١٨٣.
- (٢٥) المصدر السابق، ص ١٨٣، بتصرف يسير.